KADHAYA TARIKHIA

قضايا تاريخية

ISNN :718X EISSN : 2802-6031

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/228

المظاهر الحضارية بمملكة مالي الإسلامية في القرن 8هـ/14م

من خلال كتابي (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري و (رحلة ابن بطوطة)

The Civilizational aspects in the Islamic Kingdom of Mali In the 8th century AH / 14th century AD Through (Masalek Alabsar by Ibn Fadl allah Alomari) and (Rehlat Ibn Batutta)

د/ عبد القادر سليماني

جامعة الجزائر2–أبو القاسم سعد الله– (الجزائر)

kader.zyad@yahoo.com

المجلد: 09 العدد: 02 السنة : ديسمبر2024م الصفحات: 42- 64

تاريخ الاستلام: 2024/11/14 تاريخ القبول: 2024/12/07 تاريخ النشر2024/12/14م

ملخص:: تتناول هذه الدراسة موضوعا من الموضوعات المهمة في حقل الدراسات التاريخية قديما وحديثا ، وهو خاص بكيفية الاستعانة بكتب الجغرافيا والرحلات كمصادر مهمة وأساسية للتأريخ الحضاري ، حيث أنّ هذا النوع من المصنفات ، وإن كانت قد اعتنت بالمظاهر الجغرافية و الاجتماعية على وجه الخصوص ، الا أنّها تضمنت في ثناياها معلومات ونصوص هامة تصلح للتعرف على شتى مظاهر التطور الحضاري للدول والشعوب ، وقد ظلت بلاد السودان الغربي مجالا جغرافيا مغريا للباحثين والمصنفين بغرض اكتشاف خصوصياته ، والتعرف على مميزاته الحضارية المختلفة ، مع وجود رابط الدين الذي كان حافزا للرحالة والجغرافيين مشرقا ومغربا ، ومن أجل ذلك اخترنا في هذا الصدد كتابين مهمين هما مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري و رحلة ابن بطوطة ، حيث قمنا برصد أهم المظاهر الحضارية التي تضمناها ، وبالضبط في مملكة مالي الإسلامية ، ثم قمنا بتصنيف تلك المظاهر و تحليلها و الإستنتاج منها ، مع الحرص على المقارنة بين المصدرين وتبيين مدى اتفاقهما أو اختلافهما في الوصف.

كلمات مفتاحية: كتب الجغرافيا، كتب الرحلات ، السودان الغربي ،مملكة مالي،المظاهر الحضارية.

Abstract: This study deals with one of the important topics in the field of historical studies, past and present, which is related to how to use the books of geography and trips as important sources for civilization history, as this type of works, even if it took care of geographical and social aspects in particular, but it was included important texts that are suitable for identifying the various aspects of the civilization development of countries and peoples.Esspcially The Area of western Sudan have remained a tempting for researchers to discover its peculiarities, with the presence of a religion link, In order to do that, we chose two important books in this regard: (Masalek Alabsar by Ibn Fadlallah Al-Omari and the Rehlat of Ibn Battuta, where we monitored the most important civilizational aspects that they contained, and exactly in the Islamic Kingdom of Mali, then we categorized those aspects and analyzed and concluded from them

Keywords: Geographycal books; Trips books; Western Sudan; Mali Kingdom; The civilization Aspects.

– مقدمة:

تعتبر كتب الجغرافيا والرحلات من المصادر التاريخية المهمة، والتي لا يستغني عنها المؤرخ والباحث في التاريخ بأي حال من الأحوال، ففضلا عن أنها حملت في ثناياها معلومات تاريخية مهمة، فإنها تميّزت أيضا بأمر آخر ، وهو كونها نقلت خصوصيات المجتمعات ومميزاتها الحضارية بمختلف تجلياتها الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك لأن الجغرافيين والرحالة –بتعدد طرق نقلهم للأخبار– كانوا ولوعين بتدوين الغريب منها والعجيب.

ولا شكّ أنّ بلاد السودان الغربي –بممالكها المتتالية– كانت عالما غريبا، يدفع الجغرافيين والرحالة المسلمين الى محاولة استكشافه والتعرف على مميزاته، خصوصا وأنّ الرابط الديني كان عاملا مهما في ذلك.

وفي هذا البحث سنحاول التعرف على أهم الملامح الحضارية في مملكة مالي الإسلامية، من خلال مصدرين اثنين، هما : كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لإبن فضل الله العمري ، ورحلة ابن بطوطة ، ولهذا فإنّ الإشكالية الأساسية التي يطرحها هذا المقال هي : الى أي مدى أبرز المصدران المذكوران المظاهر الحضارية في مملكة مالي الإسلامية ؟

و تندرج تحت هذه الإشكالية تساؤلات فرعية من قبيل ماهي أهم تلك المظاهر ؟ وكيف ساهمت في التطور الذي عرفته المملكة خصوصا في القرنين 7و8هـ/13و14م ؟ وماهي أهمية كتب الجغرافيا والرحلات بالنسبة الى التأريخ الحضاري للدول والممالك ؟

وقد انبنت مقاربتنا للموضوع من خلال رصد أهم المظاهر الحضارية للمملكة من المصدرين المذكورين ، ثم تصنيفها بحسب المجال التي تنتمي اليه ، ثم تحليل تلك المظاهر والاستنتاج منها ، فضلا عن محاولة المقارنة بين المصدرين المعتمدين ، ومعرفة الى أي مدى كانا متطابقين في المضامين والمعلومات ، بهدف التأكد من موثوقية الأخبار من جهة ، والتعرف على مناهج وموارد المعلومات الخاصة بمملكة مالي

الإسلامية عند كليهما.

1. كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري :

1.2 التعريف بابن فضل الله العمري::

هو شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله العمري الدمشقي الشافعي ، وُلد سنة 700هـ/1301م ، تلقى علومه بدمشق أولا ثم رحل الى القاهرة فسمع بها الحديث ، وقد جمع بين الفقه والحديث ، كما تميّز في البلاغة والأدب ، فقلّما نجد ترجمة له دون أن يكون بها إشارة الى براعته في الأدب والإنشاء ، كما وصفته أغلب المصادر بالذكاء و قوة الحافظة ، تولى كتابة السر للدولة المملوكية بمصر ودمشق ، ثم حدثت له حادثة حُبس بموجبها ، ثم عُفي عنه وقضى أواخر حياته بطالا ، ولعلّها الفترة التي قضاها في التصنيف والتأليف ، من أهم مصنّفاته : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، والتعريف بالمصطلح الشريف ، وفواضل السمر في فضائل آل عمر وغيرها ، وقد توفي ابن فضل الله العمري سنة 749هـ/1348م ودُفن بدمشق[1] .

2.2 التعريف بكتاب مسالك الأبصار:

يُعتبر كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار موسوعة تاريخية وجغرافية جمع صاحبها بين حاسة المؤرخ ذي الأسلوب الأدبي الراقي، وحرفية الجغرافي العارف بأهمية المكان في توضيح الأحداث وتبيين تبعاتها ، وقد بدأ العمري في تصنيفه سنة 738هـ/1338م ، ومع ذلك فلم يتّمه ، وقد ذيّل عليه ولده شمس الدين محمد[2] ، والكتاب في عنوانه يشمل بين مفهومين اثنين : المسالك والمقصود به الجغرافيا بمختلف جزئياتها ، والممالك والتي تعني التاريخ والسياسة ومظاهر الحضارة عموما ، ويبدو أنّ ثقافة العمري الواسعة كانت من عوامل شمولية الكتاب لمختلف الجوانب ، حتى جعلت منه أرقى ما صُنّف في كتب المسالك إجمالا.

وقد قسّم العمري كتابه الى قسمين اثنين : أولهما عن الأرض ، وثانيهما عن أهل الأرض.

أما الأول فتكلّم فيه عن المسالك –و هو يقصد الجغرافيا بمعناها الواسع– وقد جعله خمسة أبواب هي : الأول: في أبعاد الأرض وأوضاعها، والثاني: في الأقاليم السبعة، والثالث: في البحار وما يتعلَّق بها من مسائل، وقد تحدَّث فيه عن القنباص "البوصلة" أيضًا، الرابع: في القِبلة وعلاماتها، والخامس: في الطرق[3].

ثم خصّص عنوانا للممالك وفيه خمسة عشر بابًا، تحدَّث فيه بالترتيب –من الشرق إلى الغرب– عن البلدان والممالك التالية: الهند، بيت جنكيز خان، الجيل، الجبال، أتراك الروم (آسيا الصغرى)، مصر والشام والحجاز، اليمن، المسلمين بالحبشة، و السودان، مالي، جبال البربر، إفريقية، بر العدوة (المغرب)، الأندلس، العرب المعاصرين وأماكنهم[4].

أما القسم الثاني: في أهل الأرض والقبائل والأقوام المختلفة، وفيه أربعة أنواع :

الأوَّل يُقارن فيه بين الشرق والغرب ، وقد تحدَّث فيه عن الطبيعة والحيوان ، وطوائف العلماء ، و الثاني في الأديان المختلفة و الثالث في طوائف أهل الدين ، و الرابع في التاريخ وفيه بابان الأوَّل في الحكومات قبل الإسلام ، والثاني في الحكومات بعد الإسلام[5].

وقد جمع منهج العمري في كتابه ممالك الأنصار بين طرائق ثلاثة في المجمل:

أولها : منهج الرواية بالمشاهدة والرؤية، وهذا فيما يتعلَّق باستعراضه لأحداث ووقائع عصره في ممالك مصر والشام والحجاز، وفي منهجه هذا يتحدَّث حديثَ الخبير المتخصِّص ، باعتباره الشاهدَ عليها.

ثانيها : منهج الرواية بالسماع، وهذا قائم على سماع رواية الذين شاهَدوا تلك البلاد، واطَّلعوا على أخبارها من التجار والزُّوَّار ، مع التحقق والمقارنة والمناقشة.

ثالثها : منهج النقل عن المتون والمصادر السابقة ، خصوصا عند الترجمة لأرباب العلوم والفنون المختلفة ، ومن تلك المصادر "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، لابن خلكان، و"خريدة القصر وجريدة العصر"، لعماد الدين الأصبهاني"، و"حِلية الأولياء"، لأبي نُعيم، كما ينقل أيضًا عن "تاريخ الطبري"، و"تاريخ دمشق"، لابن عساكر، و" مروج الذهب" للمسعودي وغيرهم كثير[6].

2. المظاهر الحضارية في مملكة مالي من خلال الكتاب:

خصّص العمري الباب العاشر من فرع الممالك الإسلامية لمملكة مالي وما معها ، وقد ذكرنا سابقا ، أنّ طريقة عرضه اتسمت بالموسوعية في الطرح ، فنجده يذكر المعطيات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية بحسب سياق الكلام ، و لا يعني هذا الأمر عدم التنظيم بقدر ما يعني سعة المعلومات وتنوعها وشموليتها ، وعلى كل حال فسنحاول في هذا العنصر تجميعها وعرضها بحسب عناوين تجمعها ، ليسهل فهمها واستخلاص النتائج المتوقعة منها ، وسيكون عرضنا لها بالشكل التالي:

أ/ المظاهر السياسية والعسكرية ب/ المظاهر الاقتصادية ج المظاهر الاجتماعية والدينية

وقبل الخوض في التفاصيل ، علينا الإشارة أولا إلى أنّ ابن فضل الله العمري ، قد تكلّم أيضا عن جملة من المعطيات الجغرافية والطبيعية التي تميّزت بها مملكة مالي ، والتي كان له انعكاس كبير على بقية المظاهر الحضارية التي سنذكرها في قادم الصفحات ، ويمكن إجمال تلك الملاحظات الطبيعية والجغرافية فيما يلي:

أولا تكلّم عن موقع المملكة و امتداداتها و طبيعتها الجغرافية ، فذكر أنها تقع في جنوب نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط[7] ، وفي ذلك تحديد للموقع بدقة متناهية يدل على إطلاع واسع للرجل ، كما يدل على المستوى العلمي الراقي الذي بلغته الجغرافية عن المسلمين .

وثانيا تحديده لأجزاء مملكة مالي الواسعة ، والتي تشمل أربعة عشر إقليما، أكبرها إقليم مالي وعاصمتها مدينة جيني أو يني[8] ، واسم مالي هو من باب اطلاق الجزء على الكل ، ومن الأقاليم التي تضمها غانا و زافون ، والتكرور[9] ، وهنا يشير الى أنّ أهل مصر يطلقون على ملك مالي اسم ملك التكرور، ولو أنّه سمعه لما رضي به لأنّ التكرور جزء من مملكته[10].

وثالثا أشار ابن فضل الله العمري الى امتداد المملكة فقال أنها مملكة مربعة طولها أربعة أشهر وعرضها مثل ذلك ، أما عاصمتها يني فهي ممتدة طولا وعرضا ، وأجزاءها متفرقة لا يحيطها سور[11].

ورابعا إشارته كذلك الى بعض الملامح المناخية فيصف المملكة بشدة الحرارة[12] ، التي تؤثر بشكل كبير في الإنتاج الزراعي، كما أنّها تؤثر على المدخرات التي تفسد بسرعة[13].

وخامسا الحديث عن الموارد المائية في المملكة والتي تنحصر في نوعين اثنين : الأبار، ونهر النيل[14] – حسبما يسميه هو– والحقيقة أنّ المقصود نهر النيجر الذي يقطع المملكة بشكل أفقي متعرج من الغرب الى الشرق ، و يصب فيما يسمى حاليا بخليج غينيا.

1.3 أ/ المظاهر السياسية والعسكرية :

من ضمن المظاهر التي يتناولها العمري في هذا المجال، حديثه عن سلطان مالي، و هو في الفترة التي يعالجها الكتاب السلطان مانسا سليمان (741هـ-761هـ/1341م-1360م) ، الذي خلف أخاه السلطان الشهير مانسا موسى (712هـ-728هـ/1312م-1328) ، حيث يقول عنه أنّه وسّع

أطراف المملكة وجلب الفقهاء المالكية اليها.[15]

وقد وصف العمري مجلس السلطان وصفا ينم عن حجم الأبهة والتي كان عليها، حيث كان السلطان يجلس على دكة فوق مصطبة تُسمى بلغة البلد بنبي[16]، وهي مزيّنة بزينة تنتمي الى تلك البيئة حيث يُستعمل فيها خشب الأبنوس وأنياب الفيلة، فضلا عن الأسلحة التي غالبها من الذهب[17].

ومجلس السلطان يشمل مماليك وعساكر عن يمينه وشماله، وطبول تُدق وسناجق تُرفع، وكلها علامات للهيبة والفخامة[18]، التي تُشابه ما كان في مصر والمشرق من مجالس شاهدها العمري أو سمع عنها ، ومظاهر الأبهة هذه هي ملمحٌ مهمٌ من ملامح التطور الحضاري الذي عرفته مملكة مالي في القرن الثامن هجري ، الرابع عشر ميلادي (8هـ/14م).

وقد عاد ابن فضل الله العمري الى موضوع مجلس السلطان والمظاهر البروتوكولية التي تميزه ، في موضع آخر من كتابه ، ولكنّه هذه المرّة يتحدّث عن السلطان مانسا موسى الذي زار مصر في طريقه الى رحلة حجه المشهورة ، و قد نقل العمري روايته هنا عمن جالس السلطان وسمع منه ، فيذكر أن شعار السلطان هو اللون الأصفر والأحمر ، ولا يتحرك الا تحت ظل أعلام كبيرة تتبعه[19] ، كما أشار الى بعض الممارسات التي تتم بين يدي السلطان كتمرّغ الذين يُنعَم عليهم بين يديه شكرا وعرفانا لعطاءه إياهم[20] ، كما يشير المؤلف في هذا العنصر الى حجم الهدايا والعطايا من الذهب التي أنفقها السلطان مانسا موسى في مصر ، والتي جعلت سعر الذهب يهوي في الأسواق ، مما تنج عنه ارتدادات اقتصادية مؤثرة على مصر وأسواقها وتجارتها[21].

ومن النقاط المهمّة التي يذكر هنا أنّه مصدره الذي ينقل عنه وهو أبو الحسن علي بن أمير حاجب، وقد كان واليا لمصر والقرافة، كان قد سأل السلطان عن كيفية وصوله الى السلطنة، فذكر له قصة الملك

الذي كان قبله، والذي ذهب في رحلة لاستكشاف آخر البحر المحيط أو المحيط الأطلسي ولم يعد[22]، وهنا نسأل سؤالا مهما : ألا تُعدّ تلك محاولة مبكرة من محاولات استكشاف العلم الجديد ، سابقة عن محاولات الإسبان وكريستوف كولومبس في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد (15م).

أما الشق الثاني من هذا العنصر وهو الملامح العسكرية لمملكة مالي ، فمن بين أهم عناصره ، ما يذكره ابن فضل الله العمري عن تعداد الجيش المالي ومكوناته ، حيث يبلغ مائة ألف فرد (100000) ، منهم عشرة آلاف من الفرسان (10000) ، والباقي غالبهم من الرجالة أي المشاة[23] ، أما مراكبهم فهي الخيول والجمال أيضا[24] ، ويبدو أنّ نظاما شبيها بالنظام الإقطاعي كان معروفا في مملكة مالي ،

حيث أنّ أكابر امراء المملكة وقادتها ، كانوا يملكون إقطاعات من قبل السلطان ، تُدر عليهم عوائد كبير ، وبعض منها كان يدخل خزينة السلطان والمملكة ، حيث يصل سنويا الى خمسين ألف مثقال من الذهب[25].

و في المجمل فإنّ نظرة تحليلية بسيطة الى أهم المظاهر السياسية والعسكرية في مملكة مالي –كما ينقلها ابن فضل الله العمري– تدل دلالة واضحة على حجم الرقي الحضاري الذي عرفته هذه المملكة آنذاك.

2.3 المظاهر الاقتصادية:

شكّل هذا الملمح عنصرا أساسيا في الوصف العام لمملكة مالي من خلال كتاب مسالك الأبصار ، ومن أهم معطياته حديثه عن المنتجات الزراعية التي تزخر بها المملكة ومنها الأرز والفوتي وهو نوع من الحبوب تُطحن وتُعجن ، وهذا غالب قوت السكان[26] ، ومن المحاصيل أيضا اللوبيا والقرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان[27] ، إضافة الى أنواع كثيرة من الأشجار بعضها يصنّع منها الزيوت والصابون ومنها شجرة تُدعى قاريتي[28] ، ويبدو أنّ مناخا استوائيا كان يسود المنطقة ، نلمس ذلك من خلال

حديث الرجل عن غابات كثيفة متداخلة تميز المملكة[29] ، تشبه في وصفه له ما نعرفه حاليا تحت مسمى الأدغال ، إضافة الى أنواع الحيوانات التي كانت تعيش في الإقليم كالفيلة والنمور والأسود والنعام وغيرها[30].

ومن المعطيات الاقتصادية الأخرى توفر الذهب بكميات كبيرة في أقاليم، تخضع لسلطان مالي و تُحمل اليه منه سنويا أحمال كثيرة[31] ، والذهب عندهم يُجمع بطريقتين أولاهما في الربيع عقب نزول الأمطار حيث تظهر مناجمه في الصحاري ، والثانية هي طريقة التنقيب عنه على ضفاف نهر النيجر المذكور سابقا[32].

ومن المنتجات الأخرى الهامة الملح ، ولكن الروايات التي يُوردها بخصوصه متضاربة نوعا ما ، ففي

موضع من كتابه يذكر أنه متوفر بسجلماسة شمالا ، وبعض المناطق الجنوبية البعيدة[33] ، وفي موضع آخر ينقل عن راوٍ من مصادره ، أنّ الملح نادر عندهم ، وتتم مقايضته في بعض الأماكن بالذهب[34] ، و يبدو أن صعوبات في استخراجه ونقله كانت تجعل للملح قيمة اقتصادية في الإقليم ، كما يُشير المؤلف الى وجود معدن النحاس الأحمر الذي يُستخرج من مدينة تسمى تاكرا ، ويُجلب الى العاصمة نيني حيث يصدّر بعدها الى أقاليم جنوب السودان أو يُستبدل بالذهب[35] ، ويبدو أنّه كان مادة نادرة الوجود ، يدل على ذلك أنه السلعة الوحدة التي كانت تُمكّس ، بل وكان يستبدل المثقال منه بأضعافه من الذهب[36].

ومن الملامح الاقتصادية الأخرى ذات العلاقة ، رحلة حج السلطان مانسا موسى ، حيث يذكرها ابن فضل الله العمري ، ويشير الى تأثيراتها الاقتصادية على مصر وعلى الحجاز[37].

وعلى العموم فالظاهر من خلال المصدر الذي بين يدينا أن الاقتصاد المالي كان متنوعا وثريا، ومعبرا بشكل أو بآخر عن مظهر مهم من مظاهر التطور الحضاري في المملكة

2.3 المظاهر الاجتماعية والدينية:

من أهمها حديثه عن القبائل التي تُشكل مجتمع السودان، حيث يذكر قبائل بربرية في الشمال ولكنها خاضعة لملك مالي ومنها مديونة و لمتونه[38] ، وقبائل أخرى سوداء في أقاصي الجنوب تعتنق ديانات وثنية ولكنها أيضا تحت حكم المملكة وسلطانها[39].

ومن المظاهر الأخرى حديثه عن انتشار بعض العادات الاجتماعية السيئة كانتشار السحر بينهم بكثرة[40] ، أو إهداءهم البنات الى الملك يتمتع بهن دون عقد شرعي ، وقد ذكر في هذا السياق أن حوارا جرى بين والي القاهرة المذكور والسلطان مانسا موسى ، أفضى في نتيجته الى أن السلطان لم يكن يعلم أن تلك الممارسة محرّمة شرعا رغم التزامه الديني الكبير ، بل كان يعدها من المزايا للملوك ، وقد وعد مُحاورَه

أنه سيبطلها[41].

وفي موضع آخر من الكتاب يصف ابن فضل الله العمري لباس أهل المملكة بأنه شبيه بلباس العرب، فهم يرتدون العمائم[42] ، كما يلبسون جبابا ودرائع أشبه بتلك التي يرتديها أهل المغرب[43] ، كما أنّ لهم لباسا خاصا من قطن يسمى كميصا[44] ، ويبدو أن الكلمة محرّفة من قميص.

ومن المظاهر الدينية كثرة الجوامع والمساجد، والجمع والجماعات، والحرص على استجلاب الفقهاء[45]، لترسيخ مبادئ الإسلام وفق مذهب الإمام مالك ، ومنها أيضا الحرص على الجهاد ضدّ قبائل السودان الوثنية[46] ، وهذا ملمح مهم على دور مملكة مالي في نشر الإسلام في أقاصي افريقيا جنوب الصحراء

وقصارى القول أنّ كتاب ابن مسالك الأبصار في ممالك الامصار قد حمل بين طياته معلومات تاريخية وجغرافية مهمة ومتنوعة ، يستطيع الباحث من خلاله أن يرسم صورة متكاملة عن مظاهر التطور

الحضاري الذي بلغته بلاد السودان الغربي عموما ، ومملكة مالي على وجه الخصوص ، وإنّ دراسات أخرى أكثر شمولية من دراستنا هذه ، يمكن لأصحابها أن يصلوا الى نتائج أكثر ومعطيات أعمق ، سواءً من خلال كتاب ابن فضل الله العمري أو غيره.

4. كتاب رحلة ابن بطوطة:

1.4 التعريف بابن بطوطة:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المغربي المالكي ، ولد بطنجة سنة 703هـ/1304م ، وبها تلقى تعليمه ، وكان مشاركا في علم يسير من فقه وحديث ، رحل الى المشرق سنة 725هـ/1325م ، فدخل عراق العرب وعراق العجم والسند والهند والصين ، ثم دخل اليمن وحجّ ثم عاد الى الهند فاستقر بها ، و ولاه ملكها القضاء ، ثم عاد الى المغرب ، ودخل الأندلس ، والتقى بملوك وحظي عندهم ، وبعدها استدعاه سلطان المرينيين أبي عنان فارس(749هـ-759هـ/1348م-1358م) وقرّبه ، ثم رحل الى السودان ، و منها عاد الى المغرب ، وقد دامت رحلته من سنة 725هـ/1325م الى سنة 754هـ/1353م ، وقد أملى رحلته على الفقيه ابن جزي الكلبي (ت757هـ/1356م) ، سنة 756هـ/1355م فكتبها ، وقد توفي ابن بطوطة سنة 779هـ/1377م[47].

2.4 التعريف بكتاب الرحلة:

و تُسمى تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، وقد أملاها ابن بطوطة من الذاكرة على الفقيه المالكي ابن جزي الكلبي الأندلسي ، بطلب من السلطان المريني أبو عنان فارس ، و قد كان مقصد ابن بطوطة في بداية رحلته من مسقط رأسه هو الحج الى بيت الله الحرام ، ولكن الأقدار ساقته

في رحلة دامت حوالي ثلاثين سنة ، زار خلالها مصر والشام والعراق والهند والصين وآسيا الصغرى واليمن ثم في مرحلة ثانية الأندلس وبعدها بلاد السودان[48] ، وقد طُبعت رحلة ابن بطوطة أكثر من مرّة ، واعتني بتحقيقها الكثيرون ، ولكنّها مع أهميتها التاريخية والجغرافية قد حوت الكثير من المبالغات والتهويلات ، التي حدت بالكثيرين الى اتهامه بالكذب ، إضافة الى مبالغته في الحديث عن الصوفية والرفع من أقدارهم ، والتركيز على وصف مزاراتهم وأضرحتهم وتعظيمها ، كما حدث له بعض الخلط في تواريخ معينة ، ومنها زعمه اللقاء بشيخ الإسلام ابن تيمية وحضور خطبته ، و اتهامه بالتجسيم[49] ، وفي العموم فقد حملت رحلة ابن بطوطة بين ثناياها كثيرا من المعطيات التاريخية والجغرافية المهمة ، والتي جعلتها على رأس مصنفات أدب الرحلة في التراث العربي الإسلامي .

5.المظاهر الحضارية في مملكة مالي من خلال كتاب الرحلة :

إنّ الطريقة التي كُتبت بها رحلة ابن بطوطة ، وهي بالإملاء من الذاكرة قد أثّرت بشكل عام في المنهج العام له ، فابن بطوطة لا يرتب حديثه عن بلاد السودان عموما ومالي خصوصا ، وفق طريقة منظّمة ، بل يتحدّث بحسب طريق رحلته اليها ، ومع ذلك فسنحاول ترتيب المعطيات بحسب حجمه في كتاب الرحلة .

1.5المظاهر الاقتصادية:

يسوق ابن بطوطة حديثه عن طريق رحلته الى السودان حسب ترتيب المدن والبلدات التي مرّ بها ، بدءا بسجلماسة بوابة الصحراء والتي يشبهها بالبصرة لطيب تمرها[50] ، ويبدو أنّ المقارنة بالمشرق –حيث صال الرجل وجال– ، كانت حاضرة دائما في ذهن الرجل ، وهو الأمر الذي جعله في كثير من الأحيان يحكم أحكاما قاسية على البلاد وأهلها ، ثم يتكلّم عن مدينة تغازى أو مدينة الملح ، وذلك لأنّ غالب

تربتها وسطحها من الملح ، الذي يُستخرج في شكل ألواح[51] ، وقد ذكر هنا معطىً اقتصاديًا مهمًا

وهو أنّ أهلها يتصارفون بالملح مع السودان كما يتصارف الناس بالذهب والفضّة[52] ، وقد ذكر ابن بطوطة أن مدينة تغازى لا خير فيها[53] ، وهنا تبرز عدم قدرته على فهم أنّ الملح كان سلعة اقتصادية مهمة ، بل إنّه قدّم الدليل على ذلك عندما شبهه بالذهب والفضة ، ومع ذلك تناقض وعجز عن فهم الأمر.

ثم ينقلنا الى الحديث عن بقية المدن التي مرّ بها في طريق ومنها الطريق بين ايولاتن ومالي والتي وصفها بأنها كانت كثيرة الأشجار[54] ، وهو هنا يتفق مع ابن فضل الله العمري فيما سبق ، ومن الأمور التي اشترك فيها أيضا مع العمري حديثه ، عن شجرة الغرتي والتي سماها العمري القاريتي ، فذكر ابن بطوطة أن الزيت يستخرج منها ، وأضاف وظيفة جديدة لهذه المادة ، وهي دهن الأسطح بها مثلما هو استعمال الجير[55] ، ومن الأمور ذات الطابع الاقتصادي التي ذكرها أيضا ، بعض المنتجات الزراعية الأخرى مثل الأرز والفوني[56].

وابن بطوطة الى جانب الوصف الطبيعي للطرق والمفاوز الى مملكة مالي ، يضعنا في صورة التوزيع العمراني

للبلدات والمدن ومواقعها والمسافات بينها والتي يقدّرها في العادة بالأيام المقضية في الرحلة ، و كما أخطأ ابن فضل العمري في تسمية النهر الذي يجتاز مملكة مالي ، فعل ابن بطوطة كذلك وأسماه بنهر النيل ، وذكر المدن التي تتوزع على ضفافه وهي كارسخو وكابرة ، ثم زاغة وتنبكتو الى غاية الوصول الى مدينة كوكو[57].

2.5 المظاهر الاجتماعية والبشرية:

وفي المعطى الاجتماعي والبشري يشير ابن بطوطة الى استقرار قبيلة مسوفة في شمال مملكة مالي وبالضبط

في مدينة ايولاتن ، و التي يصف ضيافة أهلها له بأنه لم تكن بالقيمة الكبيرة[58] ، ولا شكّ أن ابن بطوطة كان يقارن بما رآه في المشرق والهند والصين من إكرام بالغ الحفاوة ، وهو هنا يضع أهل السودان في مقارنة ظالمة مع غيرهم ، تختلف فيها المعطيات المناخية والاقتصادية والاجتماعية.

كما يتكلّم ابن بطوطة عن بعض العادات القبيحة التي رآها عند قبيلة مسوفة ، ومنها عدم غيرة رجالها ، وسفور نساءها وعدم احتشامهن ، رغم أنّهم أحرص الناس على الصلاة والفقه والعلم[59] ، ونظنّ هنا أنّه قد بالغ في اعتبار ذلك قلة غيرة بل دياثة ، إذ أنّ المرأة كانت ولازالت ذات دور كبير في المجتمع السوداني عموما ، وفي مجتمع الطوارق حاليا والذي ينتمي الى قبيلة مسوفة المذكورة ، ولأنّ الرجل لم يتعوّد على هذا النوع من التعامل فقد بالغ في انتقاده ، وقد تكرّر معه الأمر عندما تكلّم في موضع آخر عن خروج الخادمات بين يدي سلطان مالي عاريات مكشوفات[60] ، وبالغ في الوصف حتى يظن المرء أنّهن كنّ حقيقة بدون لباس ، والذي أراه أنّ اللباس الذي كان غالبا على نساء السودان يشبه ما نراه في عصرنا هذا من لباس قد يبدو مكشوفا في بعض كرنفالات الأفارقة واحتفالاتهم ، و لكننا لا نُعير له اهتماما لمعرفتنا بطبيعة الأفارقة الاجتماعية المميزة ، ولكن لأنّ ابن بطوطة قادم من بيئة مغربية محافظة ، فقد هاله الأمر فبالغ في وصفه وانتقاده.

ومن الأمور التي انفرد بها ابن بطوطة ، ولم توجد عن ابن فضل الله العمري ، ذكره لطائفة من الإباضية يسمون بلغة البلد صغنغو ، كانوا يقيمون في مدينة تُسمى نجراتة[61] ، وهذا ملمح مهم للتنوع المذهبي في مملكة مالي من جهة ، واشارة مهمة الى الدور الإباضي في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي عموما .

3.5 المظاهر السياسية:

وفي الشق السياسي يذكر ابن بطوطة أنّه قابل سلطان مالي مانسا سليمان و لكنّه لم يعجبه ، فقد وصفه بالبخل ، وذلك لأنّه لم يكرمه ويقدّره حقيقة قدره[62] –كما يعتقد هو – وهو هنا أيضا يقارن مع ما كان يراه من عناية وتبجيل في الممالك المشرقية التي زارها في رحلاته السابقة ، ولكنّ سرعان ما يغيّر رأيه نسبيا ، وذلك عندما سمع السلطان منه شكواه في لقاء لاحق ، فأكرمه بمائة مثقال من الذهب[63]، وهنا تبدو لنا سيكولوجية ابن بطوطة الشغوفة بالهدايا والتكريم بسبب وبغير سبب.

وعندما ينتقل للحديث عن جلوس السلطان ، يتفق مع الوصف الذي أورده ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ، من عزف الطبول والأبواق بين يديه ، ووقوف الخدم بأسلحتهم ، والأبهة في زخارف الذهب والفضة على الشرفات والأسلحة[64]، ولكنّ ابن بطوطة ينفرد بوصف احتفالات عيدي الفطر والأضحى ، فيذكر أنّ الناس يخرجون في لباس أبيض غالب على الجميع ، الى المصلى الموجود بالقرب من قصر السلطان وهم يهللون ويكبرون ، وتُنصب بين يدي السلطان الأعلام الحمر من الحرير ، ثم يصعد الخطيب فيلقي خطبة العيد ، وبعد إتمام الصلاة يقف بين يدي السلطان ويتكلم في الحض على الطاعة ولزوم الأمر، وبعد العصر يخرج السلطان الى الناس فتغني الجواري وتُعزف المعازف[65] في احتفالات رسمية وشعبية مشتركة .

وفي نهاية رحلته الى السودان يلخص ابن بطوطة ما أعجبه وما كرهه من بلاد السودان وأهلها، فيذكر حرصهم عل دفع الظلم وعدم قبوله ، و كذا الأمن والاستقرار اللذان يعمان البلاد بأكملها ، ومواظبة الناس على الصلاة وقراءة القرآن[66] ، ومما نقمه عليهم ، بعض ما رآه مخالفا للشرع كما ذكرنا سابقا من السفور وعدم الحشمة[67].

وفي العموم فقد جاء وصف ابن بطوطة للسودان عموما ، ومملكة مالي خصوصا في شكل مجمل دون تفصيل أو تنظيم ، وهو ما جعلنا نجد صعوبة في كثير من الأحيان في فرز العناصر وترتيبها وفق معطياتها المتنوعة .

6. خاتمة:

في نهاية هذه الدراسة المتواضعة، رأينا أنّه من المفيد أن نجعل خاتمتها، جملة من النتائج التي تُقارن بين الكتابين والمنهجين والنظرتين، لإعتبارات عدة منها لأنّ أحد الكتابين مشرقي والآخر مغربي، وأنّ أحد الكتابين من كتب الجغرافيا والثاني من أدب الرحلات، ومن هذه النتائج:

أولا أنّ منهج ابن فضل الله العمري كان أكثر ترتيبا و تنظيما، هذا من الجانب المنهجي، أما من الناحية اللغوية فقد تقاربت لغة المصدرين لسبب وجيه، وهو أنّ كلا الرجلين سواء العمري أو كاتب رحلة ابن بطوطة وهو الكلبي قد كان أديبين أريبين لا يُشقّ لهما غبار.

و ثانيا أنّ ابن فضل الله العمري ورغم أنّ ينقل عن شهود العيان من التجار والرحالة، أو من المصادر التي اطّلع عليها، الاّ أنّه كان دقيقا الى أبعد حد في المعلومات التي أوردها عن مملكة مالي اجتماعيا و اقتصاديا و اجتماعيا، والذي يشهد على ذلك أنّنا عند المقارنة مع رحلة ابن بطوطة والذي كان شاهد عيان، لا نجد فروقا كبيرة.

و ثالثا أنّ الروح الدينية كانت باعثا مهما من بواعث التصنيف عند الرجلين، ومن دلائل ذلك احتفاؤهما بالطبيعة الإسلامية الملتزمة بالشرع، عند مملكة مالي وأهلها ، و كذلك نقدهما لكثير من الظواهر المخالفة للشرع ، حرصا وغيرة.

و رابعا يمكننا التأكيد على اختلاف واضح في المنهج والتحليل والعرض بين الكتابين والرجلين ، فابن

فضل الله العمري عالم مشارك في علوم عدّة ، ورجل دولة من الطراز الرفيع ، وهذ كله يجعل منهجه في الكتابة وعرض المعلومات يتسم بنوع من الجدّية والحرص على التوثق والتوثيق ، أما ابن بطوطة فهو رجل على قدر يسير من العلم ، فضلا عن ولوعه –على عادة الرحالة – بالغريب والعجيب والمدهش ، ولذا نجده يركز على عذا النوع من الأخبار ، ثم هو ليس بالمتوثق من أخباره كثيرا ، ومع ذلك فميزته التي بفوق بها ابن فضل الله هي الخبرة في الترحال ، والتي أكسبته دربة في فهم طبائع المجتمعات واختلافاتها.

و خامسا نستطيع القول أنّ النظرة المشرقية ممثّلة في كتاب مسالك الأبصار ، والنظرة المغربية في رحلة ابن بطوطة ، لم تختلفا بشكل كبير في تقييم المستويات الحضارية التي وصلت اليها مملكة مالي في القرنين الثامن هجري ، الرابع عشر ميلادي (8هـ/14م).

و سادسا يمكننا من خلال هذين المصدرين اللذين بين يدينا ، يمكننا استنتاج أدوار كبيرة قامت بها مملكة مالي في نشر الإسلام في قبائل السودان الجنوبية ، و نقل الإرث الحضاري للمملكة الى مناطق أخرى من قارة افريقيا.

و أخيرا وليس آخرا فإنّنا نرى أن كتب الجغرافيا والرحلات قد حوت معطيات مهمة عن تاريخ السودان الغربي ، ولذا فإننا نوصي بالتركيز على الدراسات القائمة على هذا النوع من المصادر، وحض الطلبة والباحثين على الاهتمام بها قدر الإمكان.

7. الهوامش :

1 /من مصادر ترجمة ابن فضل الله العمري ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، 1392هـ/1972م، ج1، ص 394 و395 . و الذهبي ، المعجم المختص بالمحدّثين، مكتبة الصديق، الطائف، 1408هـ/1988م، ص 46 . وابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ب ت، ج2 ، ص 262 و 263 و 264 . و صلاح الدين الصفدي ، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/2000م ج8 ، ص 163 و 164 . وغيرها.

2/ عبد الحميد الأزهري ،ابن فضل الله العمري وكتابه مسالك الأبصار في ممالك الامصار ، موقع الألوكة ، بتاريخ 1432/01/22هـ ، 2011/09/19م.

3/و4/و5/ نفسه.

6/ ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1423هـ، مقدمة التحقيق ، ص10.

7/ نفسه ، ج4 ، ص107.

8/ نفسه ،ج4 ، ص 10.

9/ نفسه و10/ ، ج4 ، ص108.

11/ نفسه ، ج4 ، ص110.

12/ نفسه ، ج4 ، ص107.

13/ نفسه ، ج4 ، ص 117.

14/ نفسه، ج 4، ص111.

15/ نفسه، ج4 ، ص. 107

16/ و17/ نفسه ، ج4 ، ص114.

18/ نفسه ، ج4 ، ص 115.

19/ و20/ نفسه ، ج4 ، ص119.

21/ نفسه ، ج4 ، ص125.

22/ نفسه ، ج4 ، ص120و121.

23/و24/ و25/ نفسه ، ج4 ، ص116.

26/ نفسه ، ج4 ، ص111.

27/ و28/نفسه ،ج4 ، ص112.

29/ نفسه ، ج4 ، ص111.

30/ نفسه ، ج4 ، ص 113.

31/ نفسه ، ج4 ، ص118و119.

32/ نفسه ، ج4 ، ص ص118.

33/ نفسه ، ج4 ، ص113.

34/ نفسه ، ج4 ، ص128.

35/ و36/ نفسه ، ج4 ، ص126.

37/ نفسه ، ج4 ، ص125.

38/و39/ نفسه ، ج4 ، ص110.

40/ نفسه ،ج4 ، ص114.

41/ نفسه ، ج4 ، ص119.

42/ و43/ و44/ نفسه ، ج4 ، ص115.

45/ نفسه ، ج4 ، ص 107.

46/ نفسه ، ج4 ، ص127.

47/ لم يترجم له كثيرون من معاصريه : وممّن ترجم له : ابن حجر، المصدر السابق ، ج5 ، ص 227 . ولسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، ج3 ، ص 206.

48/ حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة، ب ت، ص18 .و عبد القادر

زبادية ، دراسة عن أفريقيا جنوب الصحراء في مآثر

ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ت، ص111.

49/ انبرى كثيرون لدفع الشبهة عن شيخ الإسلام ، مؤكدين أنّ ابن بطوطة لم يلتق ابن تيمية ، لأنّه كان في السجن منذ شعبان سنة 726هـ/1326م ، و وقت دخول ابن بطوطة الى دمشق هو في رمضان من نفس السنة ، وأنّ ابن بطوطة ربما وهم لأنه كان يملي من الذاكرة ، أو أنّه ادّعى ذلك على شيخ الإسلام بسبب الخصومة المذهبية .

أنظر : محمد بهجة البيطار، بين الإمام ابن تيمية والرحالة ابن بطوطة ، مجلة الهدي النبوي ، العدد45 لسنة 1359هـ . وغيرها من الدراسات والمقالات. .

50/ ابن بطوطة ، تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1417هـ، ج4 ص239 .

51/ نفسه : ج4 ، ص 239.

52/ نفسه ، ج4 ، ص241.

53/ نفسه ، ج4 ، ص 239.

54/ نفسه ، ج4 ، ص247.

55/ نفسه ، ج4 ، ص 248.

56/ نفسه ، ج4 ، ص 249.

57/ نفسه ، ج4 ، ص250.

58/ نفسه ، ج4 ، ص 244.

59/ نفسه ، ج4 ، ص 245 و246.

60/ نفسه ، ج4 ، 265 و 266.

61/ نفسه ، ج4 ، ص 249و 250.

62/ نفسه ، ج4 ، ص 255.

63/ نفسه ، ج4 ، ص 256.

64/ نفسه ، ج4 ، ص 257.

65/ نفسه ، ج4 ، ص260.

66/ نفسه ،ج4 ، ص265.

67/ نفسه ، ج4 ، ص266.

8- قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن الخطيب، لسان الدين (1424هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة ، بيروت ، دار الكتب العلمية.

2- الذهبي، شمس الدين، (1408هـ/1988م)، المعجم المختص بالمحدّثين ، الطائف ، مكتبة الصديق.

3- العسقلاني ،ابن حجر(1392هـ/1972م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية.

4- العمري، ابن فضل الله (1423هـ)،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي ،المجمع الثقافي.

5- الصفدي،صلاح الدين،(1420هـ/2000م)، الوافي بالوفيات ، بيروت ، دار إحياء التراث.

6- اللواتي،ابن بطوطة،(1417هـ)، تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،الرباط، أكاديمية المملكة المغربية.

7- المصري،بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي،القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

8- زبادية ،عبد القادر،دراسة عن افريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين ،الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية.

9- مؤنس،حسين ،ابن بطوطة ورحلاته ، القاهرة، دار المعارف.

10- البيطار،محمد بهجة،(1942م)،بين الإمام ابن تيمية والرحالة ابن بطوطة،دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي ، مج17،ج8 ،ص-ص 379-381.

11- الأزهري،عبد الحميد (1432هـ/2011م)،ابن فضل الله العمري وكتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، موقع الألوكة ، بتاريخ 01/22/. ، 2011/09/19م

https://www.alukah.net/culture/0/34686